كافور الأخشيدى

للأستاذ أحمد رمزى

احتدم الجدال فى إحدى الليالى بين مصرى وعراقى ، فقال الأول : « رحم الله الحجاج بن يوسف الثقفى » ؛ ورد عليه الثانى وقد تملكته سورة الغضب : « رحم الله كافوراً الأخشيدى » . واشتد حنق المصرى إذ وجدها كبيرة على نفسه أن يحكم بلاده كافور ، فلما ألقى إلىّ ذلك قلت : « يا صاحبى لا تحزن ، إن أبا المسك الأستاذ كافور كان أميراً من أكبر الأمراء ، وعاهلا من أعظم ملوك المسلمين بمصر ، ويزيد بلادنا فخراً أن تولاها مثله كما لا ينقص من قدره سواد لونه ، بل فى ذلك دليل على علو همته . وإن لونه لم يقعد به عن بلوغ أعلى المراتب ، ودليل على أننا لا نفرق بين الأبيض والأسود ، لأننا جميعاً سواء . وإذا أخذ عليك ولاية كافور علينا ، فقل إن ملكه شمل مصر والشام ، وإنه كان يخطب له على المنابر بمكة والمدينة والحجاز جميعه ودمشق وحلب وأنطاكية والثغور وفيها طرسوس[1] والمصيصة وغيرها من الأقاليم التى خضعت لسطوته ودانت لسلطانه كما ذكره الفرغانى ونقله ابن خلكان فى ترجمته لكافور . فإذا وجدت معرة بكافور فاسأل غيرنا تجدهم قد شاركونا فيها ، فكيف وليس فى الأمر معرة علينا ، بل مفخرة لنا ؟ »

« أليس كافور من أبناء السودان ، وكلنا ننشد الوحدة الشاملة ؟ فكيف تستكثر على أحد أبنائه ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحته ؟ وهل كان كافور عاطلا عملا حتى تؤاخذنا به ، أو نبرأ من ولايته وإمارته ، وهو الذى قال فيه أبو الطيب المتنبى برغم تحامله بعد ذلك عليه :

قواصد كافور توارك غيره ... ومن قصد البحر استقل السواقيا

فجاءت بنا إنسان عين زمانه ... وخلّت بياضاً خلفها ومآقيا

وهو القائل فيه :

فإن لم يكن إلا أبو المسك أوهُمُ ... فإنك أحلى فى فؤادى وأعذب

وكل امرئ يولى الجميل محبب ... وكل مكان ينبت العز طيب »

قال : « أو لم تسمع بقارع الهجاء وشنيع الذم ؟ » قلت : « إذاً فلنتخذ ماتنشره جرائدنا ومجلاتنا الحزبية دليلا على إفلاسنا وفنائنا ، فمتى كان يقام وزن للهجاء والتشنيع الذى يمليه الحقد والنفس الموتورة ؟ »

أما أنا فآخذ بما ذكره الذهبى[1] عن كافور إذ قال : « كان يدنى الشعراء ويجيزهم ، وكانت تقرأ عنده فى كل ليلة السير وأخبار الدولتين الأموية والعباسية . وكان عظيم الحرمة ، وله حجاب »؛ ثم قال : « إنه تقدم لدى الأخشيد صاحب مصر لعقله ورأيه وسعده إلى أن صار من كبار القواد ، ثم أتابك ولده أبى القاسم أنوجور ، ووصل إلى أن زاد ملكه على ملك مولاه الأخشيد » . وتكلم على مقدرته وكفايته وحسن تدبيره فقال : « إنه كان خبيراً بالسياسة فطناً ذكياً جيد العقل داهية » ، وضرب مثلا لذلك حين قال : « إنه كان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه ، وكان يذعن بالطاعة لبنى العباس ، ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء حتى تم له الأمر » . أليس فى ذلك دليل على قوته ؟

وأذكر لك ما عثرت عليه من أن كافور كان أول من غزا ، ولازمه التوفيق فى فتح الأقاليم النوبية ، فقد هاجمها قبله أبو منصور تكين التركى هى وبرقة فى عام واحد ، ولم يتم فتحها على يديه . ولما غزاها كافور كان التوفيق حليفه ، لأن جيش المسلمين كان من السودان ، وفى ذلك يقول الشاعر :

ولما غزا كافـــور دنقـــلة غدا

بجيش كطول الأرض فى مثلها عرض

غزا الأسود السودان فى رونق الضحى

ولما التقى الجمعان أظلمت الأرض

فهو أول من تمت الوحدة على يديه . وهو حامل لواء الإسلام والعروبة فى أراضى السودان . ولو شئت أن تعلم عن كافور وأيام كافور وأياديه البيضاء وأنفاسه الطاهرة ومجده وسلطانه وحسن بلائه ، فعليك بكتب التاريخ تنبئك عن عقل ودراية وحكمة وسياسة وحسن تصريف للأمور وفهم للناس وطبائعهم ، وهذه أشياء شهد له بها المعاصرون ووفوه حقه فيها . أما نحن فنرى

(١) هما مدينتان فى ولاية أضنه داخل الجمهورية التركية

(١) النجوم الزاهرة جزء رابع .

فيه رجلا عظيما من عظماء القرن الرابع الهجرى ، خدم باخلاص مولاه الأخشيد ، وصان استقلال مصر لسنوات ، وواجهته المصاعب والمشاكل والحروب ، فتغلب عليها وخرج من مآزقها ، وهو بطل من أبطال تاريخ مصر العربية ، ولذلك تجدنى من أنصار كافور ومن المعجبين به ومن الداعين لحفظ ذكراه ، ولو كان لى من الأمر شىء ، لبحثت عن قبره ، وأقمت قبة عليه ، ثم لطلبت من أولى الأمر فى مصر والسودان أن يطلق اسمه على ميدان أو شارع بالقاهرة وأم درمان والخرطوم ، صيانة لذكره وإقراراً لفضله ، وتوكيداً لصلات مصر والسودان .

فاذا كان الأمير كان من الملونين يبحثون عن صورة بوشكين الشاعر الروسى المشهور ، ويضعونها فى أحسن مكان لصلة القربى معهم لسمرة لونه ، فكيف ينكر فضل كافور وهو ملك من أعظم الملوك ؟ ولم لا يقوم السودان ويقعد له ويحتفى به وهو منه وإليه منسوب ؟

إننى يا صديقى لا أتفق معك ولا أجاريك فى قولك بأن الوطنية والكرامة تمليان حذف اسمه وسيرته وعهده من كتب التاريخ ، بل أقول : إنهما تمليان علينا نشر فضائله ومحاسنه ؛ وإنى كلما تأملت فى عصر أستاذنا أبى المسك كافور وقرأت عنه وعن أخلاقه وسيرته بين الناس ، بدت شخصيته ممتازة محبوبة عليها وقار واحترام وحشمة ، لا بأعماله السياسية وحياته العامة ، وهى ليست موضع نزاع ، بل بأدبه وتواضعه وخضوعه لأحكام الله ، وكرمه وإخلاصه لمن حوله ، ولصلاته ودأبه على عمل الخير وإسداء المعروف ، وهى نواح إن أهملتها بعض كتب التاريخ ، فقد وجدت مبعثرة ، ولذلك رأيت أن أشير إليها .

قال ابراهيم بن اسماعيل إمام مسجد الزبير : « إن كافورا كان يداوم الجلوس بالغداة والعشى لقضاء حوائج الناس ، وكان يتهجد ويمرّغ وجهه ساجداً ويقول : « اللهم لا تسلط علىّ مخلوقاً » . وكان لا يأنف من أصله ومولده ، ويحمد الله أن رفع من قدره ، وينسب ما لقى من خير إلى توفيق الله ونعمته . فقد ذكر أبو بكر المارداني ، وكان وزيراً لكافور ولأبى منصور تكين التركى : « إن كافورا كان دائم التحدث بنعمة الله عليه ، ويذكر أيامه بالسودان ، وكيف جىء به إلى مصر وعمره أربع عشرة سنة ». وحدّث أنه كان بمدينة الفسطاط فى السوق المنسوبة لبنى حباسة طباخ يبيع الطعام ، فمر كافور فى شبابه وطلب منه شيئاً من الطعام فضربه بالمغرفة على يده وهى حادة ، فوقع مغشياً عليه ، فأتاه رجل ورشّ عليه الماء ، وأواه حتى وجد العافية . قال : « فعزّت عليه نفسه يذكر ما أصابه من الطباخ ، وقد ركب ومر إلى ذلك الرقاق ، ويسجد شكراً لله على نعمائه » . وكان يفعل ذلك فى إبان ملكه ومجده وعظمته .

قلت لصاحبى وقد يكون فى ذلك بعض المبالغة من أصحاب السير ؛ ولكن ما الحكمة فى ذلك وكافور لم يعقب نسلا ولم يترك أهلا ولم تصمد دولته بعده ليتملقها الكتاب والمؤرخون ؟ فقال ناحية أخرى تحبب إلىّ الرجل : هى فهمه للناس وعطفه عليهم وأخذهم باللين مع تعاليه عن تصديق الوقيعة وقبول الفتن . ذكر ابن خلكان فى ترجمة الشريف ابن طباطبا ولا يزال قبره بقرافة الإمام الشافعى : « أنه كان طاهراً كريماً فاضلا صاحب ضياع ونعمة ظاهرة وعبيد وحاشية ؛ وكان يرسل لكافور فى يومين جامين حلوى ورغيفاً فى منديل مختوم ، فحسده بعض الأمراء وقال لكافور « الحلو حسن فما لهذا الرغيف فانه لا يحسن يقابلك به » فأرسل إليه كافور يعتذر عن قبول الرغيف ، فمر الشريف إليه وعلم أنهم قد دسوا عليه ، فلما اجتمع به قال له « أيدك الله إنا لا ننفذ الرغيف تطاولا وتعاظما ، وإنما هى حسنية تعجنه بيدها وتخبزه فنرسله إليك على سبيل التبرك ، فان كرهته قطعناه » فقال كافور : لا والله لا تقطعه ولا يكون سواه »[1] .

وكان محدثى قوياً لا يلين ، فيه عنجهية من بقايا القرون التى سبقت الإسلام والرسالة المحمدية ، فهو مصر على التفرقة بين الناس حسب ألوانهم كما قسم هتلر الناس وصنف الشعوب أصنافا ، فقلت له إن ابن زولاق ، وهو حجة فى الموضوع ، قد ترجم لكافور فقال « إنه كان ديّناً كريماً » ، فانظر ما نقله صاحب الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة عن ابن المجلى فى تاريخه إذ قال :

حدثنى أبو الحسن البغدادى قال : وردت إلى مصر وهى

(١) ذكر صاحب كنز الدرر ونقله صاحب النجوم الزاهرة أن سماط كافور كان فى اليوم مائتا خروف كبار ومائة خروف رميد والأرز والدجاج والحمام والحلوى والشراب .

أبى وكنت دون البلوغ فى أيام كافور الأخشيدى ، وكان أبو بكر المجلى يتولى نفقة كافور ومصالحه وخواص خدمته ، فانتسجت بينه وبين أبى مودة ، فكان يأتى إلى أبى ويزوره ، فجلس فى بعض الأيام يتحدث ويتذاكر أخبار كافور ، فقال أبو بكر لأبى وأنا أسمع : إن هذا الأستاذ كافور له فى كل عيد أضحى عادة ، وهو أنه يسلم إلىّ بغلا محملا ذهباً وورقاً وأمضى مع صاحب الشرطة ونطوف من بعد العشاء إلى آخر الليل حتى أسلم ذلك لكل من أجد اسمه فى تلك الجريدة فأطرق أبوابهم وأقول لهم هذا من عند أبى الملك كافور .

وقال أبو جعفر مسلم بن عبد الله بن طاهر العلوى النسابة : ما رأيت أكرم من كافور : كنت أسايره يوماً وهو فى موكب خفيف يريد النزهة وبين يديه عدة جنائب ، فوقعت مقرعته من يده ، ولم يرها ، فنزلت عن دابتى وأخذتها من الأرض ، فقال : أيها الشريف ، أعوذ بالله من بلوغ الغاية ، ما ظننت أن الزمان يبلغنى حتى تفعل أنت هذا معى ، وكاد يبكى ... فقلت : أنا صنيعة الأستاذ ووليه . فلما بلغ داره ودعنى . ولما سرت التفت ، فإذا بالجنائب والبغال كلها خلفى . فقلت : ما هذا ؟ قالوا : أمر الأستاذ أن يحمل مركبه إليك بجنائبه . فأدخلته دارى ، وكانت قيمته تزيد على خمسة عشر ألف دينار !

تلك أقاصيص موزعة مفرقة أوقفتنى الصدف عليها فى مواضع متعددة ، وهى تكشف الطريق لنا لبحث نفسية كافور ، فهذا رجل وصل إلى درجة من أعلى درجات عصره وكانت تهابه الدنيا ، فانظر إلى تواضعه وخجله ، وإلى نفسه الهادئة المطمئنة ، وقس على ذلك فقاقيع الرجال ممن نلقاهم كل يوم ، وهم لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم من الأمر شيئاً تراهم يخفون ضعفهم بالتظاهر بالقوة ، وجهلهم بتعاليهم على الناس ، وهم فى مشيتهم وغطرستهم وحديثهم وما يبدو فى وجوههم مضحكة ومهزأة للعصر الذى نعيش فيه وللعصور القادمة : « يا أيها الناس ، ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ، ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب » صدق الله العظيم[1] .

وفى ذى القعدة سنة ٣٦٢ هـ ، وهى السنة التى قدم فيها المعز لدين الله إلى القاهرة من بلاد المغرب ، ركب لكسر خليج القنطرة ، فكسر بين يديه ، ثم سار على شاطئ النيل حتى بلغ إلى بنى وائل ، ومر على سطح الجرف فى موكب عظيم ، وخلفه وجوه أهل الدولة ، ومعهم أبو جعفر أحمد بن نصر يسير فى ركابه ، ويعرفه بالمواضع التى يجتاز عليها ، وتجمعت الرعية للدعاء له ، ثم عطف على بركة الحبش ، ثم على الصحراء ، وسار على الخندق الذى حفره القائد جوهر ، ومر على قبر كافور ، وعلى قبر ابن طباطبا الحسنى ، ثم عاد إلى قصره[1] .

عثرت على هذا النص عرضاً ، فوقفت مندهشاً أمام النصوص التى تقول : بأن تابوت كافور نقل إلى القدس ودفن بها وكتب على قبره :

ما بال قبرك يا كافـــور منفرداً
بصحصح الموت بعـد العسكر اللجب ؟
يدوس قبرك آحـــاد الرجال وقد
كانت أسود الشرى تخشاك فى الكتب

ودخلت بحراً يموج بالمسائل ، وكلها تحتاج لتحقيق ، وسنرى ما يكون من أمرها .

أحمد رمزى

القنصل العام السابق لمصر بسوريا ولبنان

(١) ابن زولاق فى كتاب سيرة المعز لدين الله نقله المقريزى فى الخطط لما ذكر ما كان يعمل عند فتح الخليج .

(١) ٧٢ من سورة الحج .

إدارة البلديات — مباني

تقبل العطاءات بإدارة البلديات (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر يوم ١٥ أبريل سنة ١٩٤٦ عن توريد ٨٢٠ طن حديد مبروم لأعمال الخرسانة المسلحة

وتطلب الشروط والمواصفات من الإدارة على ورقة دمغة فئة الثلاثين مليما مقابل دفع مبلغ ١ جنيه خلاف مصاريف البريد . ٥٠٤٢